المحاضرة الرابعة: المديح النبوي

تاريخ المدائح النبوية ونشأتها:

يعد الشعر المناصر للإسلام مديحا للرسول [ص]، وهو إرهاصا أولا لفن المدائح النبوية الذي قدر له بعد قرون أن يستقل بذاته. ولعل أول ما نعرفه من الشعر الذي قيل في الرسول [ص] في الدور المكي من حياته، هو الشعر المنسوب إلى أبي طالب عم الرسول[ص] وكافله بعد وفاة جده عبد المطلب، ومن أشهر وأصح هذا الشعر القصيدة التي مطلعها

وأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوَجْهِهِ ثِمالُ اليَتَامَى عِصْمَـــــةٌ للأَرَامِلِ

حَلِيـمٌ رَشِيدٌ عادِلٌ غَيْرُ طائِشٍ يُوالِي إلاهاً ليسَ عنـــــه بغافِلِ

وحينما انتقل الرسول إلى مكة، عمد شعراء قريش من المشركين إلى هجاءه وأصحابه من المهاجرين ومن آواهم في المدينة من الأنصار، ومنذ هذه اللحظة أضحى حسان بن ثابت شاعر الرسول الأول وأبرز المدافعين عن الإسلام ومناقضي خصومه[1]. وعلى الرغم من أن مديح حسان للرسول يأتي عرضا في شعره[2]، فإن أغلب الدارسين يتفقون على أن ذلك الشعر يتضمن النواة الأساسية للمدائح النبوية، والنموذج الذي حاكاه أو عارضه كثير من شعراء تلك المدائح فيما بعد[3].

وتستمر المدائح النبوية دائرة حول أوصاف النبي -ﷺ-الخُلُقية والخَلْقية المعروفة ، ولا نجد ذلك الغلو الذي يخرج بالمدائح النبوية إلى رفع النبي -ﷺ- فوق مقامه البشري، وإضفاء بعض الصفات الإلهية عليه إلا في القرن السابع الذي يعرف في التاريخ الإسلامي بانتشار التصوف فيه إلى حد كبير ، مما أثر تأثيراً كبيراً على الشعراء الذين تسابقوا في مضمار المدائح النبوية ، بنَفَسٍ يخالف المدائح السابقة ، ويوافق الفكر التصوفي . وكانت البداية الفعلية لهذه المدائح بهذا النَفَس الصوفي المتميز على البوصيري.

أسباب ظهور فن المدائح النبوية وازدهارها:

لاشك في أن من العوامل التي أعانت على نشر التصوف وحملت المسلمين على العودة إلى شخصية الرسول وسيرته، يستخلصون منها العبرة ويستمدون منها العون، هو تعرض عالم الإسلام لتلك الهجمات الجائحة التي نفذت إلى صميم البقاع الإسلامية، التي تمثلت في هجمات المغول والتتار من جهة الشرق والصليبيين من جهة الغرب، وما تعرضت له الأندلس من زحف مسيحي لم تفلح في رده جهود المرابطين ثم الموحدين، وهكذا شعر المسلمون هنا وهناك بالضعف وقلة الحيلة، فلم يكن أمام الشعراء والأدباء، وهم ضمير الأمة ولسانها الناطق بها، إلا أن يتوجهوا إلى الرسول يستشفعون به ويطلبون منه العون والنصرة. كما أيقظت الهجمات الصليبية مشاعر المسلمين، لما رأى المسلون كيف يمجد الصليبيون شخصية المسيح ويقدسون رموز المسيحية، فحرصوا بدورهم ألا يكونوا دونهم تمجيدا لمحمد ولهَجا باسمه.

ومن الأسباب الرئيسية أيضا فساد كثير من الحكومات وظلمها للرعية، وانتشار المفاسد الاجتماعية، ومن ذلك ما عرف عن العصر المملوكي من صور اللهو والمجون، وخاصة في أعياد النصارى، فلم يجد الشعراء ملاذا لهم وللأمة الإسلامية من تلك الأهوال إلا في التوسل إلى الرسول يبثون له تلك الآلام والمظالم والأحزان.

حينما قضى صلاح الدين الأيوبي على الخلافة الفاطمية سنة 567هـ وأبطل رسومها وأعيادها[4]، لم يستبق من الأعياد إلا المولد النبوي الذي ظل المسلمون في الشرق يحتفلون به لكن لا نلبث أن نرى هذا العيد يتخذ طابعا من الجلال والفخامة لا عهد لنا به من قبل، ففي المشرق العربي كان على يد قائد من قواد صلاح الدين وهو الملك المظفر أبو سعيد كوكبوري بن علي كُجْك [549هـ- 630هـ] صاحب مدينة إربل بقرب الموصل، وأما في المغرب، فقد كان على يد أمير مدينة سبتة القريبة من مضيق جبل طارق وهو أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد بن الحسين الشهير بابن أبي عزفة اللخمي [607هـ- 677هـ] الذي استطاع تخليص مسلمي الأندلس والمغرب من الاحتفالات المسيحية التي تقام كل رأس سنة واستبدالها بعيد المولد النبوي الشريف الذي أصبح عيدا رسميا سنة 691هـ، وقد كان كل هذا منطلقا لحركة شعرية واسعة النطاق، موضوعها تلك المدائح النبوية مما كان ينشد بمناسبة هذه الاحتفالات التي أصبحت منذ ذلك الوقت تقليدا ثابتا في جميع بلاد المشرق والمغرب، حتى أننا نرى دواوين كاملة تفرد لهذا الموضوع، وشعراء كادوا يتخصصون فيه.[5]

أهم شعراء المدائح النبوية:

من بين أهم شعراء المدائح النبوية على الإطلاق، الذي كان تأثيره على هذا الفن في العصور التالية، بل حتى اليوم، هو شرف الدين البوصيري، وهو مُحَمَّد بن سعيد بن حماد الصنهاجي نسبة إلى قبيلته صنهاجة البربرية التي تدل على أصله المغربي، ولد قرب وادي النيل، وعاش في الفترة الممتدة بين 608هـ/ 698هـ. وللبوصيري قصائد عديدة في المديح النبوي، نذكر منها تلك التي عارض بها قصيدة كعب بن زهير، ولاميته في الرد على أهل الكتاب، ثم همزيته التي سماها "أم القرى في مدح خير الورى"[6]، وأهم مدائحه على الإطلاق بردته التي دعاها "الكواكب الدرية في مدح خير البرية".

تعد الهمزية من أجمل قصائد المديح النبوي، وفيها يعرض الشاعر جانبا كبيرا من السيرة النبوية، ومع ذلك فإنها ليست نظما تاريخيا باردا، بل نحس فيها دائما بحرارة الإخلاص واتقاد العاطفة، فهي تجمع بين القصصية والغنائية في مزيج رائع.

وأما البردة، فمناسبة نظمها كما صرح البوصيري نفسه، أنه أصيب بفالج أبطل نصفه، فنظم هذه القصيدة متشفعا بها إلى الله وطالبا منه العافية، فرأى في منامه الرسول يسمح وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردته، فإذا البوصيري يرى نفسه سليما معافى. ومن الأمور الأخرى التي زادت من أهمية البردة وشهرتها أن جمهور الناس من معاصري الشاعر كانوا يعتقدون في بركة "البردة"، وأن لكل بيت فيها فائدة، فهذا يشفي من الصرع، وذاك ينفع في حفظ المزارع والمنازل ومن التلف، وآخر ينفع في الجمع بين النافرين من الأحباب إلى آخر ما ابتدعوا لها من فوائد حسية ومعنوية.

تتألف البردة من 167 بيت موزعة على عشرة فصول، وقد أجمع معظم الباحثين على أن ميمية البوصيري أفضل قصيدة في المديح النبوي من الناحية الفنية الأدبية – لا الشرعية – إذا استثنينا لامية كعب بن مالك (البردة الأم)، حتى قيل : إنها أشهر قصيدة في الشعر العربي بين العامة والخاصة.

ومهما يكن من أمر فقد أثّرت ميمية البوصيري في المدائح النبوية تأثيراً عميقاً، حيث نقلتها مضموناً وقالباً . أما من حيث المضمون فقد نقلت المدائح النبوية من المدح المعتاد للنبي –ﷺ– بأوصافه المشهورة المعروفة إلى أوصاف غلو ومبالغة على نحو إعجازي خارق، بالغ المثالية، بالغ الكمال، وبالغ الجلال، يرقى بالنبي بموجبها إلى درجة ربانية،

ويسمون هذه الأوصاف: (الحقيقة المحمدية) التي يدعي المتصوفة أن غيرهم لا يعرفونها؛ ولهذا فهم يحملون كل غلو في ميمية البوصيري وغيره ممن سار على دربه على أنه من الحقيقة المحمدية التي ينفردون بمعرفتها للنبي -ﷺ.

أما من حيث القالب فقد جعل المدائح النبوية تتكون من ثلاثة أجزاء: الأول يسمى النسيب النبوي، وهو التشوق إلى المدينة النبوية التي تضم قبر النبي —صلى الله عليه وسلم- وفيها جرى أغلب أحداث سيرته، ويتلو هذا النسيب بعض الحِكَم التي تحذر من الدنيا وأهواء النفس. وأما الجزء الثاني فهو مديح النبي -ﷺ- وعرض سيرته ، وهذا الجزء هو غرض القصيدة، وفيه يذكر الشاعر سيرته من مولده إلى وفاته —صلى الله عليه وسلم- ويتكلم على معجزاته وخصائصه. والجزء الثالث هو إقرار الشاعر بذنوبه وطلب العفو، وفي آخر هذا الجزء يختم القصيدة بالصلاة والسلام الدائمين على النبي -ﷺ- ويكثر فيه دعاء النبي -ﷺ- والاستغاثة به وإضافة صفات ربانية إليه، وإن كان الجزءان السابقان لا يخلوان من مثل ذلك.

ومن الشعراء الذين نظموا أكثر شعرهم في المديح النبوي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن الجنان المرسي.كان كاتبا لبعض أمراء الأندلس، وخرج منها سنة 640هـ، فوفد على سبتة، ثم استقر ببجاية حيث أدركته المنية سنة 650هـ، فمن قصائده التي أصبحت أنموذجا يحتذ به المداح بعده، تخميس تتردد فيه لازمة الصلاة على الرسول، حيث يقول:

اللـــــــه زاد مُحَمَّدا تكريما وحباه فضـــلا من لدنْه عظيما
واختصـــه في المرسلين كريما ذا رأفة بالمؤمنـــــــــين رحيما
صلـــوا عليه وسلمـــــوا تسليما

ومن أشهر مؤلفي البديعيات، التي هي فرع من فروع المديح النبوي، وفن يوظف المديح النبوي لخدمة علم من علوم اللغة العربية ألا وهو علم البديع، هو شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد المعروف بابن جابر، شاعر أندلسي، ولد بالمرية سنة 698هـ، فقد بصره وهو لا يزال صبيا، خرج إلى الحج رفيق دربه أبي جعفر الإلبيري سنة 738هـ، وبعد الحج استقر الرجلان في الشام، وهنالك توفي ابن جابر سنة 780هـ.

أما بديعيته التي عرفت في تاريخ البلاغة باسم "بديعية العميان" فهي التي سماها " الحلة السِّيَرَا في مدح خير الورى" وهي إحدى قصائد ديوان كامل أفرده للمديح النبوي بعنوان "العِقدين في مدح سيد الكونين" الذي مازال مخطوطا حتى اليوم. يقول في مطلعها:

بطَيْبَةَ انزل ويمم سيد الأمم وانشر له المدح وانثر له طَيِّبَ الكلم

وتقع البديعية في 177 بيتا، وقد أحصى فيها 60 نوعا بديعيا، وقام بشرحها صاحبه أبو جعفر الإلبيري في كتاب أسماه "طراز الحلة وشفاء الغلة". ومن الواضح أن الهدف المزدوج من هذه البديعيات، وهو المديح النبوي في قالب تعليمي بلاغي، قد جعلها أشبه بمنظومات العلوم بما فيها من تكلف، ولهذا فإن القارئ لا يكاد يهتز لها، ولا يكاد يرى فيها قيمة فنية.

[1]- لا يعني القول بأن حسان بن ثابت شاعر الرسول الأول، عدم وجود شعراء آخرين، بل برز منهم، بدرجة أقل، كل من الشاعر كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

[2]- يقول حسان في معرض رده على الكفار المتهجمين على الرسول [ص]:

آليتُ حِلفَـــــةَ برٍ غَيرَ ذِي دَخَلٍ مني أَلِيَّةَ حـــــــــــقٍ غيرَ إفنَادِ
تالله ما حملت أنثى ولا وضعـــت مثل النبي رسولِ الرحمـــــةِ الهادي
ولا مشى فوقَ ظهر الأرض من أحد أوفى بذمـــــــــــة جارٍ أو بميعاد
من الذي كان نـــــوراً يستضاء به مباركَ الأمرِ ذا حـــــــزم وإرشاد
مصدقاً للنبيين الأُلى سلفـــــــوا وأبـــذل الناس للمعروف للجادي
خير البريـــــــة إني كنت في نَفَرٍ جارٍ فأصبحت مثل المفرد الصادي

[آليت: حلفت الدخل: النفاق.ألية:القسم. الإفناد: الكذب. الجادي: السائل. الصادي: الضمآن

[3]- تعد قصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها الرسول، المدحة التي تجاوزت كل المدائح السابقة، وخلدت اسم صاحبها في تاريخ الشعر العربي إلى اليوم. وسميت القصيدة "البردة" لأن الرسول حينما انتهى زهير من إنشاد قصيدته كساه بردته التي اشتراها معاوية من أبناء زهير، وكان يلبسها هو والخلفاء من بعده في العيدين تبركا بها.

[4]- أولت الخلافة الفاطمية اهتماما كبيرا بعدد من الموالد، أصبحت أعيادا رسمية وأهمها أربعة: مولد الرسول، مولد علي بن أبي طالب، مولد فاطمة بنت الرسول، ومولد الخليفة الحاضر.

[5]- أول هؤلاء الشعراء جمال الدين يحي بن يوسف الأنصاري المعروف بالصرصري نسبة إلى صرصر، و هي قرية قرب بغداد، ويوضح تخصصه في المديح النبوي في قصيدته التي مطلعها:

أوجهك أم ضـــــــوء الصباح تبلجا أم البدر في برج الكمال جلا الدجى
أم الشمس يوم الصحو في برج سعدها وفرعـــــك أم ليل المحب إذا سجا

إلى أن يقول:

إليك رســـــول الله أهدي مدائحي فتكسب من رياك نشـــــرا مؤرجا
وتلبسها أوصافك الزهر حلة الـــــــ بهاء وروضا من حِـــــــلاك مدبجا
أســـــــــوْتَ بما بينتَ داء قلوبنا كما كنت تأســـو قبلُ أوسا وخزرجا
وكنت نبيا قبل آدم مـــــــــــرتجًى لتفتـــــــــــح باباً للهداية مرتجا

[6]- تقع الهمزية في 455بيت، ومطلعها:

كيف ترقى رقيّـــــك الأنبياء يا سـماءً ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حـــــال سنا منك دونهم وسناء
أنت مصباح كل فضل فما تصـــدر إلا عن ضوئك الأضواء